بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الشارقة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

ندوة

(الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي)

المحور الثاني: الحوار مع الآخر في القرآن الكريم

١ــ حوار الأنبياء مع أقوامهم

عنوان البحث:

(نوح ــ عليه السلام ــ وحواره مع قومه، أنموذجاً)

الإثنين ــ الأربعاء: ١٦ــ٢٠٠٧/٤/١٨ م

إعداد الدكتور

عدنان بن عبد الرزّاق الحموي العُلَبِي

أستاذ مساعد في كلية الشريعة والقانون

جامعة الإمارات العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

خطة البحث

وتتكَّون من مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة فتتناول تعريف الحوار، والفرق بينه وبين الجدل والمِراء، وغيرها من الألفاظ ذات الصلة. وبيان أهمية الحوار ومكانته، وقواعده، وأشكاله وأنواعه، مع الاستدلال والتمثيل له بشواهد ونماذج.

ثم يأتي المبحث الأول، ويتضمَّن تعريفاً بسيدنا نوح عليه السلام؛ اسماً، ونسباً، ومولداً، وبعثة، وعمراً، ووفاة، وأسرة، وقوماً، وزمناً، وصفة، وعبادة، واصطفاءً. كما يتضمَّن بيانَ أهم ما تميَّزت به مدة دعوته من محطات، وأنواع اتهامات قومه له.

ثم يتلوه المبحث الثاني، حيث أستعرض فيه مضمونَ حوار نوح عليه السلام، والمتمثِّل في ثلاثة محاور؛ في حواره مع قومه، وحواره مع ولده، ثم حواره مع ربه بشأن ولده، مع التركيز على منهجيته في هذا الحوار، وبيان أهم ما تميَّزت به دعوته من خصائص.

ويفرد المبحث الثالث للحديث عن النتيجة التي آلت إليه دعوته، والعقاب الذي حلَّ بقومه وولده وأهله في أمر الطوفان، والعبر والعظات المستفادة من أسلوب نوح عليه السلام في هذا الحوار الشامل؛ مع ربه، وقومه، وولده.

ويركز البحث على ربط مفرداته ومباحثه بالواقع المعاصر، وما تعيشه الأمم من صراع الحضارات وصدام الثقافات، من خلال التعليق على الحدث التاريخي في قصة نوح عليه السلام، وذلك بمقارنته مع ما يماثله من مواقف مشابهة في العصر الحاضر، من محاولات أعداء الرسالات والملاحدة للتصدِّي لدعوة الحق، والإعراض عنها، واختلاق المعوِّقات في وجه كلمة الخير لِتَحُولَ دون نشرها، والتربص بأهل الإيمان في سعيهم لنشر الفضيلة والهدى، والحيلولة دون تبليغهم رسالة العدل والأمان، للعالم والإنسانية جمعاء.

وتأتي الخاتمة لتحديد أهم الحقائق التي أتوصَّل إليها، والنتائج المتوخَّاة من البحث، مع التذليل بتوصيات مناسبة في ختام البحث، إضافة إلى فهرسة ثبَت المصادر أصولاً.

المقدمة:

تعريف الحوار:

حار في اللغة بمعنى: رجع، وأصل التحاور في اللغة: هو المراجعة في الكلام، يقال: تحاوروا أي: تراجعوا الكلام بينهم. والتحاور: التجاوب، والمحاورة: المجاوبة[1]. ومن الألفاظ ذات الصلة: الجدل، والمناظرة، والمناقشة، والمِراء.

فالجدل: مقابلة الحُجَّة بالحُجَّة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة. وهو قسمان: جدل محمود ممدوح، وذلك إذا قُصِد به تأييد الحق، أو إبطال الباطل، أو أفضى إلى ذلك بطريق صحيح. وجدل مشؤوم مذموم، وهو كل جدل على الباطل إذا قُصِد به التعالي على الخصم، وطلبُ المغالبة به. وهو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره. أما الجدل المحمود فهو ما قُصِد به إظهارُ الحق، بعيداً عن معاني المنازعة والخصومة، لقوله تعالى: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وكما في أمر المجادِلة في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ﴾ [المجادلة: ١]، وهو ما يتصل بالحوار معنىً، ومضموناً[2].

أما **المناظرة:** فهي ترداد الكلام بين شخصين، يَقصِد كلٌّ واحد منهما تصحيحَ قوله، وإبطالَ قولِ صاحبه، مع رغبةِ كل منهما في ظهور الحق. يقال: ناظره مناظرة: بمعنى جادله مجادلة، أي تقابلا، وهي من النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين، إظهاراً للصواب[3].

أما **المناقشة:** فهي مراجعة الكلام بقصد الوصول إلى الحق غالباً، كما يقصد بها الاستقصاء في الحساب، حتى لا يُترَك منه شيء[4].

أما **المِرَاء:** فهو الجدل المذموم، يقال: ماريته إذا طعنت في قوله؛ تزييفاً للقول، وتصغيراً للقائل، ولا يكون المِراء إلا اعتراضاً، بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداءً واعتراضاً[5].

---

(1) انظر: لسان العرب: ٢٦٤/٤، والقاموس المحيط: ص: ٤٨٧، ومختار الصحاح: ص: ١٦١.

(2) انظر: لسان العرب: ٩٩/٣، والكليات: ص: ٣٥٣، والتعريفات: ص: ١٠١.

(3) انظر: التعريفات: ص: ٢٩٨، والقاموس المحيط: ص: ٦٢٣، والمصباح المنير: ٨٤١/٢.

(4) انظر: لسان العرب: ٣٣٨/١٤، والقاموس المحيط: ص: ٧٨٥، ومختار الصحاح: ص: ٦٧٦، والمصباح المنير: ٨٥٤/٢.

(5) انظر: لسان العرب: ٦٣/١٤، والمصباح المنير: ٧٨٢/٢.

وقد عرَّفه الجرجاني فقال: هو طعنٌ في كلام الغير لإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض، سوى تحقير الغير[1].

الفرق بين الحوار والجدال والمِراء:

الحوار أحد الطرق المهمة في التربية، وهو أسلوب حضاري يقوم على احترام الرأي الآخر، وإظهار الحجة بالمنطق والدليل. وقد يعترض المحاور على خصمه فيدَّعي الجدل، وشتَّان بينهما؛ فالجدل هنا: عبارة عن مِراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والغرض منه إلزام الخصم، وإقحام مَن هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. أو هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة[2]، حينما يقوم على فرض الرأي بالقوة، وعدم احترام الرأي الآخر، لذا جاءت السنَّة النبوية تحضُّ على ترك المِراء والجدال بالباطل. فعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا زعيم ببيت في رَبَضِ الجنة لِمَن ترك المِراء وإن كان مُحِقّاً، وببيت في وسط الجنة لِمَن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لِمَن حَسَّنَ خُلُقَه)[3]. وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن ترك الكذب وهو باطل بُنِي له في رَبَضِ الجنة، ومَن ترك المِراء وهو مُحِقٌّ بُنِي له في وسطها، ومَن حسَّنَ خُلُقه بُنِي له في أعلاها)[4].

بيان أهمية الحوار ومكانته:

لقد اهتمت الرسالات السماوية بالحوار من حيث أنه يمثِّل الرأي الحر، ويقدِّر للتعبير حريته، بعيداً عن نوازع الهوى التي تحكم العواطف فتصدُّها عن قبول الحق، لذا نجد الدعوة صريحة في القرآن الكريم إلى أهمية الحوار، ومكانته في إقامة الحجة، بالأسلوب الإنساني الرشيد، القائم على احترام الآخر، وإرادة الخير له. من هنا بيَّن القرآن الكريم أسلوب الحوار، وصفة الجدل المحمود، فقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥]، ونهى عن المِراء والجدل

([1]) انظر: التعريفات: ص: ٢٦٦، والموسوعة الفقهية الكويتية: ١٢٦/١٥.

([2]) انظر: التعريفات: ص: ١٠٢.

([3]) رواه أبو داود في سننه: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم الحديث: ٤١٦٧، وابن ماجه في سننه: كتاب المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل، رقم الحديث: ٥٠.

([4]) رواه الترمذي في سننه: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المِرَاء، رقم الحديث: ١٩١٦. قال أبو عيسى: هذا الحديث حديث حسن، لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان عن أنس بن مالك. ورواه ابن ماجه في سننه: كتاب المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل، رقم الحديث: ٥٠. وفي رواية ابن ماجه: (بُنِيَ له قصرٌ في رَبَضِ الجنة).

المذموم، وعدَّه صفة إنسانية مذمومة، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف: ٥٤].

كما حدَّد أهمية الحوار وهدفَه في أكثر من موضع قرآني؛ من حيث إقامة الحجة، والإتيان بالدليل، كي لا يكون للخصم عذرٌ في التراجع، فقال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. وقال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال سبحانه: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[1].

وإنما يكون الجهاد باللسان في تبيان الحق بالحجة والبرهان، لا بالشغب، والسبِّ، والشتم، والهذيان. والقرآن الكريم أبلغُ في حُجَجِه وبراهينه، ولهذا أُمِر الرسولُ ﷺ أن يجاهِد الكفارَ به، فقال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٢].

والحوار والجدال بالحق من النصيحة في الدين. وفي قصة نوح عليه السلام قولهم له: ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود: ٣٢]، فكان جوابه لهم قوله: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ ﴾ [هود: ٣٤].

قواعد الحوار:

من خلال تتبع آيات الحوار في القرآن الكريم نستطيع أن نحدد أهم قواعده المتمثِّلة بالأدب، وإظهار الحق، والبعد عن التناقض، والبعد عن المكابرة، والتجرد، والصدق، والعلم، وطلب الدليل.

فيتجلَّى الأدب في الحوار باحترام إنسانية الطرف الآخر المحاور، واستماع رأيه، دون تسفيه، أو تحقير، وإعطائه الفرصة كاملة لعرض الفكرة، وشرح الرأي. وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ في سياسة المفاوضات، ودوننا أمثلة كثيرة في السيرة النبوية على هذا، نستشهد باثنين

([1]) رواه أبو داود في سننه: كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، رقم الحديث: ٢١٤٣.

منها؛ فقد استمع إلى عمه أبي طالب، وعتبة بن ربيعة في عرض موقف المشركين بإنصات وأدب، حتى إذا فرغا من عرضهما قدَّم رأيه بأدب وثبات وحجة[1].

أما إظهار الحق فهو هدف سامٍ يسعى إليه المحاور، بعيداً عن التعسُّف والتحجُّر، فهو يعرض الرأي بتجرُّد وإنصاف، ويعلِّل ويناقش بموضوعية ونزاهة، بعيداً عن المصلحة الشخصية، ودون عصبية، أو خصام.

ويتمثل المحاور بالاتزان والموضوعية في عرض الفكرة، بعيداً عن تناقض الآراء، واضطراب الردود، وتعارض الأفكار، إذ كثيراً ما يسقط المحاور أمام خصمه، ويُؤتَى من هذا الجانب، ذلك لأنه تعبير واضح عن ضعف الشخصية، ووهن الفكرة المنافح عنها.

وطالما أن هدف الحوار الوصول إلى الحقيقة، فلا يحسن بالمحاور أن يجاسر في تشدده بالرأي، وتشنُّجِه لنصرته، بل يسعى للحوار بحِنكة ودماثة، مبتعداً عن المكابرة، ومجانباً لأي سلوك عنفواني، قد يؤدي إلى خسارة الجولة في النهاية، وانقلابها سلباً ضده، فلا تحسب له، بل تُعدُّ مأخذاً عليه.

ومما لا يخفى أهمية تجرد المحاور عن النوازع الشخصية، والحظوظ الدنيوية، والانتصار للذات، فهو ينتصر للحق، ويسعى لإظهاره بالحكمة واللين، إذ هو صاحب رسالة، فلا بدَّ أن يتمثل سماتِها سلوكاً، ودعوة، وانتماءً.

كذلك فإن أهم ما ينبغي على المحاور التزامه الصدق في الأقوال، والثبات والرسوخ في المواقف، إذ أن هذه السمات الأخلاقية تزيده قوة وصلابة، تضاف إلى قوة فكرته التي يحاور فيها، وتعطيه دفعاً أمام خصمه حين يتسم بالجدِّية والصدق والثبات أمامه، فيكون أدعى للاحترام في نظر الخصم، والوصول المتوقع إلى النتيجة المرضية.

وفوق هذا كله يلزم المحاور تمام العلم بالقضية المحاور فيها، والإحاطة الشاملة بحيثياتها وجزئياتها، إذ أن أخطر ما يواجه المحاور جهله بما يحاور فيه، حين ينقلب الأمر إلى مراء سقيم، وجدل عقيم، إن لم يكن كما يطلق عليه في اللقاءات بحوار الطرشان؛ ذاك الذي لا وجهة له ولا هدف، ولا قواسم مشتركة بين المتحاورين، ولا مقدمات واضحة تصل إلى نتائج إيجابية مفيدة.

ومما يؤخذ على المتحاورين أحياناً قصورهم في الجانب العلمي، والجهل بالبيِّنات والأدلة، والشواهد والأمثلة، فيُطلب ممَّن يتصدى للحوار الإحاطة العلمية الموسَّعة بالقضية التي يبحث فيها، والإلمام العميق الدقيق بتفاصيلها، حين يحاور فيها، وربطها بكل ما يتصل بها من

([1]) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام: ٣٠٢/١، و٣٣٠/١.

فروع العلم والمعرفة الأخرى، واستحضار الأدلة إن هو طولب بها، أو استدعى الأمر إلى الاستشهاد بها، ويقصد بالدليل هنا الأدلة النصية من الكتاب والسنَّة، وما يعضدها من أقوال أهل العلم، إضافة إلى الحقائق العلمية الثابتة، والشواهد التاريخية الموثقة.

أشكال الحوار وأنواعه:

تنوَّع الحوار في القرآن الكريم، وأخذ أشكالاً وأنواعاً مختلفة؛ فمن أشكاله: السرِّي، والعلني، ومن أنواعه: الحوار بين الله تعالى والأنبياء، والحوار بين الله تعالى والإنسان، والحوار بين الله تعالى والملائكة، والحوار بين الله تعالى وإبليس، والحوار الإنساني الدعوي؛ وذلك بين الأنبياء وأقوامهم، والحوار بين الإنسان والكائنات الأخرى، والحوار بين أهل النار في القيامة، وفي القرآن الكريم شواهد عديدة، ونماذج كثيرة لكلٍ مما سبق. كما قد يكون الحوار محموداً، وهو الأصل، وقد يكون مذموماً، إذا كان بهدف المِراء، كما سبق ذِكْره[١].

المبحث الأول: التعريف بسيدنا نوح عليه السلام؛ وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول: اسمه ونسبه عليه السلام:

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام (جدُّه الأكبر)، ابن يرد بن مهلايل بن أنوش بن قينان بن شيث عليه السلام حيث ينتهي نسبه إليه، ابن آدم عليه السلام أبي البشر. قال الكلبي: كان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر لنوح والد فيما بينه وبين آدم عليهما السلام[٢].

المطلب الثاني: مولده عليه السلام:

ذكر ابن جرير وغيره أن مولد نوح عليه السلام كان بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة[٣]. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين، وأنزل كتابه، فكانوا أمة واحدة)[٤].

وعن أبي أمامة ﷺ: (أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبيٌّ كان آدم؟ قال: نعم مكلم، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون)[٥].

---

(١) انظر: الموسوعة القرآنية الميسَّرة: ص: ٦٧٨-٦٧٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٨/١٨، ٣١٤، والبداية والنهاية: ١٠٠/١.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، لابن كثير: ٦٢/١.

(٤) أخرجه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. المستدرك: كتاب التفسير، باب تفسير سورة ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾: رقم الحديث: ٣٦٥٤.

(٥) صحيح ابن حبان: كتاب التاريخ، باب ذكر الأخبار عما كان بين آدم ونوح صلوات الله عليهما من القرون، رقم الحديث: ٦١٩٠.

ويحتمل المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر، فبينهما ألف سنة لا محالة، ولكن لا ينفي أن يكون أكثر، باعتبار ما قيَّدت به رواية ابن عباس رضي الله عنهما بشريعة الحق، إذ قد يكون بينهما قرون أُخَرُ متأخرة لم يكونوا على الحق، كما يحتمل المراد بالقرن الجيل من الناس، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ ﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ [مريم: ٩٨].

فقد كان الجيل قبل نوح يعمِّر الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف السنين، والله أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عُبِدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة، فبعثه الله تعالى رحمة للعباد، فكان أولَ رسول بعثه إلى أهل الأرض، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة، كما جاء في الصحيح عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: (يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك، حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر ذنبه فيستحي، ائتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحي فيقول: ائتوا خليل الرحمن، فيأتونه...). الحديث[1].

المطلب الثالث: بعثته عليه السلام:

نوح عليه السلام أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، كما جاء في حديث البخاري السابق، واختُلِف في مقدار سنِّه يوم بُعِث؛ فقيل: كان ابن خمسين، وقيل: ابن ثلاثمائة

---

(1) وتتمة الحديث: (فيأتونه فيقول: لست هناكم، ائتوا موسى عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر قتل النفس بغير نفس، فيستحي من ربه، فيقول ائتوا عيسى عبد الله ورسوله، وكلمة الله وروحه، فيقول: لست هناكم، ائتوا محمداً ﷺ عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني فأنطلق حتى أستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسَلْ تُعْطَهْ، وقل يسمع، واشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي، فأحمده بتحميدٍ يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأُدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي مثله، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة، فأقول ما بقي في النار إلا مَن حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود). قال أبو عبد الله: إلا مَن حبسه القرآن يعني: قول الله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾. صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، رقم الحديث: ٤١١٦، وقصص الأنبياء، لابن كثير: ٦٢/١.

وخمسين، وقيل: ابن أربعمائة وثمانين سنة، حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس رضي الله عنهما[1].

المطلب الرابع: عمره عليه السلام:

ذكر القرآن الكريم أن نوحاً عليه السلام مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، فيكون قد عاش على هذا ألفاً وسبعمائة وثمانين سنة، على أصحِّ الروايات، وهي أطول حياة عاشها إنسان، والله تعالى أعلم[2].

المطلب الخامس: أسرته عليه السلام:

كان لنوح عليه السلام أربعة أولاد هم: (سام، وحام، ويافث، وكنعان)، فعن سمرة بن جندب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش)[3].

وعن سعيد بن المسيب أنه كان يقول: (وَلَدُ نوح ﷺ ثلاثة: سام وحام ويافث، فولَدُ سام العرب وفارس والروم، وفي كل هؤلاء خير، وولَدُ حام السودان والبربر والقبط، وولَدُ يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج)[4]. وهؤلاء الثلاثة قد نجوا من الغرق، وكان من نسلهم أهل الأرض، إذ كل الخلائق يُنسَبُون إلى هؤلاء الأولاد الثلاثة لنوح عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات: ٧٧].

أما كنعان فهو ولده الرابع الهالك مع الهالكين، لأنه أبى أن يركب مع أبيه في السفينة، وهو الذي دعا نوح ربه أن ينجيه، لكن الله تعالى عاتبه فيه أنه ليس من أهله، وأنه عملٌ غير صالح. فقد كان كاتماً للكفر، غيرَ متظاهر به. كما أن امرأة نوح كانت من الهالكين أيضاً بكفرها وخيانتها زوجها. وهي أمُّ أولاده كلهم، كانت كافرة، وماتت قبل الطوفان، وقيل: إنها غرقت مع مَن غرق، وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها، فقد أخبر القرآن الكريم عنها أنها كافرة، وضُربت مثلاً للذين كفروا كامرأة كانت تحت عبد ورسول صالح فخانته. قال الله تعالى: ﴿

([1]) انظر: قصص الأنبياء، لابن كثير: ٦٣/١.

([2]) انظر: النبوة والأنبياء: ص: ١٤٤.

([3]) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب المناقب: باب في فضل العرب، رقم الحديث: ٣٨٦٦. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. ويقال: يافث ويافت ويفت.

([4]) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الفتن والملاحم، رقم الحديث: ٨٤٢٩.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم: ١٠]. وقد ذكر العلماء أن خيانتها لم تكن بارتكاب الفاحشة، ففي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ما بغت امرأة نبيٍّ قطُّ)[١]، بل تمثَّلت خيانتها في الدين، وذلك بعدم اتباعه، وكفرها ومناصرة كَفَرَة قومها، فكانت تخبر قومها أنه مجنون، كما كانت تخبر جبابرة قومها بما تعلم مِن سرِّه في دعوته لدين الله تعالى، وتنصر قومها عليه. قال ابن كثير: وهذا هو مذهب أئمة السلف والخلف، ومَن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأً كثيراً[٢].

المطلب السادس: قومه عليه السلام:

ورد في الآثار أن قوم نوح عليه السلام أولُ مَن عُوقب من الأمم[٣]. كما لم يكن على الأرض غيرهم من الأقوام والأمم. وقد جعلوا الأوثان التي تعبد في زمنهم آلهة عبدوها، وعبدتها العرب من بعدهم من دون الله تعالى. ثم جاء من بعدهم قوم عاد الذين أرسل الله تعالى فيهم أخاهم هوداً عليه السلام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ؛ أمَّا ودٌّ كانت لكلب بدَومة الجندل[٤]، وأمَّا سُواع كانت لهُذَيل[٥]، وأمَّا يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف[٦] عند سبأ، وأمَّا يعوق فكانت لهمدان[٧]، وأمَّا نسر فكانت لحِمْيَر[٨] لآل ذي الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعْبَدْ، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخَ العلمُ عُبِدَتْ)[٩].

---

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٨٢/١، وقصص الأنبياء لابن كثير: ص: ١٦٤/١، والنبوة والأنبياء: ص: ٢٤٠.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، لابن كثير: ٧٥/١.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: رقم الحديث: ٤٩٢٠.

(٤) حصن وقرى بين الشام والمدينة. معجم البلدان: ٥٥٤/٢.

(٥) كان سُواع بمكان لهُذَيل يقال له: رُهاط من أرض الحجاز من جهة الساحل.

(٦) الجوف: اسم واد في ألاض عاد فيه ماء وشجر: انظر: معجم البلدان: ٣٥٢/٢.

(٧) بلاد همدان باليمن.

(٨) حِمْيَر: منازل بالمن، وإلى أهلها ينسب أكثر اللغة الحميرية: انظر: معجم البلدان: ٣٥٢/٢.

(٩) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ﴾، رقم الحديث: ٤٥٣٩. ومعنى (تنسَّخ العلم): أزيل. وفي رواية لأبي ذر والكشميهني: (ونُسِخ العلم)، أي علم تلك الصور بخصوصها. فتح الباري:

وذكر ابن حجر في الفتح عن ابن إسحاق وابن أبي حاتم: أن قوم نوح عليه السلام كانوا يبطشون به، فيخنقونه حتى يُغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. قال ابن حجر: قلت: وإن صح ذلك فكأن ذلك كان في ابتداء الأمر، ثم لما يئس منهم قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦][1].

المطلب السابع: زمنه عليه السلام:

تميَّز زمنه بانتشار الوثنية وعبادة الأصنام، بعد زمن طويل كان الناس فيه على التوحيد والإيمان، وإنما انتشرت الوثنية في قومه نتيجة تباعد الزمان، واختلاف الناس، حتى بعث الله تعالى النبيين.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

وروي عن قتادة قال: (كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أولُ نبي بُعِث نوحاً عليه السلام)[2].

المطلب الثامن: صفته عليه السلام:

تميَّز نوح عليه السلام بما خصَّه الله سبحانه من وصفه بصفة الشكر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣]. قيل: كان نوح عليه السلام يحمد الله تعالى على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[3].

والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية؛ فإن الشكر يكون بهذا وبهذا[1].

٥٣٧/٨. والنسخ: أن تزيل أمراً كان من قبل يُعمَل به، ثم تنسخه بحادث غيره. وفي الحديث: (لم تكن نبوة إلا تناسخت)، أي: تحولت من حال إلى حال، يعني أمر الأمة وتغاير أحوالها. لسان العرب: ٢٤٣/١٤.

([1]) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: رقم الحديث: ٣٢٩٠.

([2]) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٦٢/١، والجامع لأحكام القرآن: ٣٠/٣.

([3]) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب: رقم الحديث: ٤٩١٥.

وروى عبد الرزاق بسند مقطوع: أن نوحاً كان إذا ذهب إلى الغائط قال: (الحمد لله الذي رزقني لذَّته، وأبقى فيَّ قوَّته، وأذهب عني أذاه)[٢].

المطلب التاسع: عبادته عليه السلام:

ونستعرض ما ورد في السنة من أخبار عبادته عليه السلام، فقد اشتهر عنه الصوم والحج. أخرج ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (صام نوح الدهر إلا يوم الفطر، ويوم الأضحى)[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حجَّ، قال: (يا أبا بكر أيُّ واد هذا؟ قال: وادي عسفان، قال: لقد مرَّ به هود وصالح على بكرات حمر، خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبُّون يحجُّون البيت العتيق)[٤].

ويقوِّي هذا ما ذكره البيهقي في دلائل النبوة أن آدم وحواء أولُ مَن بنيا البيت، وأولُ الناس الذين طافوا فيه، ثم تناسخت القرون حتى حجَّه نوح عليه السلام، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام القواعدَ منه[٥].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: (مرَّ النبي ﷺ بأناس من اليهود قد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا من الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي نجَّى الله موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرَّق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجوديّ، فصامه نوح وموسى شكراً لله تعالى. فقال النبي ﷺ: أنا أحقُّ بموسى، وأحقُّ بصوم هذا اليوم، فأمر أصحابه بالصوم)[٦].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٨/٣، والبداية والنهاية: ١١٨/١.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: رقم الحديث: ٣١٦٢.

(٣) سنن ابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في صيام نوح عليه السلام، رقم الحديث: ١٧٠٤. وفي رواية: (صام نوح عليه السلام الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود عليه السلام نصف الدهر، وصام إبراهيم عليه السلام ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر، وأفطر الدهر). انظر: تاريخ ابن عساكر: ٢٢٤/٦، و٢٧٦/٦٢، والبداية والنهاية: ١١٨/١.

(٤) الموسوعة الحديثية لمسند أحمد: ٤٩٥/٣، رقم الحديث: ٢٠٦٧. و(عسفان): وادٍ بين مكة والمدينة، و(بكرات): جمع بكرة، وهي الفتيَّة من الإبل، و(الخطم): جمع خطام، و(النمار): جمع نمرة، وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب، كأنها أخذت من لون النمر، لما فيها من السواد والبياض. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١١٨/٥، والبداية والنهاية: ١١٨/١.

(٥) دلائل النبوة للبيهقي: ٤٥/٢، وإعلام الساجد بأحكام المساجد: ص: ٤٥.

(٦) الموسوعة الحديثية لمسند أحمد: ٣٣٥/١٤، رقم الحديث: ٨٧١٧.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لئن بقيت إلى قابل لأصومنَّ التاسع، وفي رواية أبي بكر قال: يعني يوم عاشوراء)[1]. وعن أبي قتادة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (صيام يوم عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفِّر السنة التي قبله)[2].

المطلب العاشر: اصطفاؤه عليه السلام:

والاصطفاء: الاختيار، والانتقاء الخالص الخاص بشخص نوح عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]، كما يتجلَّى هذا الاصطفاء والانتقاء في الوحي المنزَّل عليه، والوحي سُنَّة من السنن المتكررة للأنبياء. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [النساء: ١٦٣].

المطلب الحادي عشر: أهمُّ ما تميَّزت به مدة دعوة نوح عليه السلام من محطَّات:

أولاً: صبر نوح عليه السلام على تكذيب قومه له.

وقد عُدَّ نوح عليه السلام أوَّلَ أولي العزم من الرسل الخمسة حسب تاريخ وجودهم، يليه إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وإنما خُصُّوا بأولي العزم من الرسل لتكاليف تتعلق بمهمات هذه المرتبة زيادة على غيرهم من الأنبياء، تتناسب مع اصطفائهم للرسالة العظمى، وتحمُّل البلاء الأشد من أذى المدعوِّين والتكريم الأعلى. وكانت صفة الصبر الغالبة المميزةَ فيهم، لذا نزل القرآن الكريم يأمر النبي الكريم ﷺ بالتأسِّي بهم في درجة الصبر التي امتازوا بها، وأن يصبر كما صبر سالفوه من هؤلاء الرسل الكرام، فقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩].

ثانياً: طول مدة دعوته عليه السلام:

حيث قاربت الألف سنةٍ إلا قليلاً، ولا يخفى ما في هذا الامتداد الزمني للدعوة من أهمية في مدى تحمُّل أعباء الرسالة، ومقابلة صدِّ المدعوِّين بمعاناة ومشقة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

([1]) صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء، رقم الحديث: ١٩١٧. و(الجودي): جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل، وعليه استوت سفينة نوح لما نضب الماء. انظر: معجم البلدان: ٢٠٨/٢.

([2]) سنن الترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في الحث على صوم يوم عاشوراء، رقم الحديث: ٦٨٣.

إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

وكان كلما انقرض جيل جاء مَن بعده أخبث وألعن، فقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان به، وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بني احذر هذا لا يغرنَّك عن دينك وآلهتك[1].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء، ضربه قومه فأدمَوه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون)[2].

ثالثاً: دعاؤه عليه السلام ومناجاته ونداؤه ربه:

ومما لا شك فيه أن الدعاء حالة من صدق العبد في توجُّهه إلى خالقه طالباً منه العون والنصرة، ولكنه حين يتكرر مع الاستشعار بالافتقار إلى هذه النصرة، والاعتراف بغَلَبَة القوم عليه، فإنه يعطي المؤشر إلى مدى قسوة وعنف المدعوِّين في هذه المواجهة، وما تحمله من ضراوة الصدِّ، وشراسة الإعراض، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات: ٧٥].

وحتى في دعائه هذا لم يعيِّن نوعَ النصر ووجْهتَه، بل فوَّض ذلك لرب العالمين. قال تعالى في أمر نوح عليه السلام: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر: ١٠]. إلا أن الدعاء كان ملحَّاً، فقد رفع صوته به إلى حدِّ النداء من شدة ما وصل وأهلُه إليه من عِظَم الكرب. قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

رابعاً: سؤاله عليه السلام لربه ما ليس له به علم:

ومما يؤيد التزام نوح عليه السلام بالمنهج النبوي في أخلاقيَّات التعامل مع الله تعالى، وحسن المناجاة، ذلك الأدبُ في السؤال، واللطفُ في الطلب؛ فقد ورد في معرض مناجاتِه ربَّه استغفارُه من سؤاله ما ليس له به علم، وطلبُ المغفرة والرحمة، والاستعاذةُ به من أن يكون من الخاسرين. يقول الله تعالى في الحكاية عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

([1]) النبوة والأنبياء: ص: ١٤١.

([2]) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم الحديث: ٣٢١٨.

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: (يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلَّمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يُريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر ذنبه فيستحي، ائتوا نوحاً، فإنه أولُ رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحي فيقول: ائتوا خليل الرحمن). الحديث[1].

المطلب الثاني عشر: أنواع الاتهامات لنوح عليه السلام من قومه:

لقد واجه قوم نوح نبيَّهم عليه السلام بشتى أنواع الاتهامات القولية والفعلية، وتفنَّنوا في إيذائه واتهامه، وهذا دأب المعاندين الكافرين في شنِّ أعتى أنواع الأسلحة الممكنة في وجه الدعاة والمصلحين، وهو سلاح يتكرر استعماله في كل عصر وحين، حين يتصارع الضدَّان؛ الحق والباطل على البقاء، فلا يعدو سلاح المعاندين أن يكون حرباً قولية أو عملية في وجه الحق وأهله. وتتجلى أنواع اتهامات قوم نوح لنبيِّهم عليه السلام **بالأمور التالية:**

<u>الأمر الأول: اتهامه عليه السلام بالسفه والضلال:</u>

فهو يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، محذراً لهم من عذاب الله تعالى لكفرهم، لكنهم يردُّون عليه دعوته، ويتَّهمونه بالسفه والضلال لمجرد أنه يذكِّرهم بدعوة الحق، ورغم هذا فهو يدفع عن نفسه الاتهام، ويؤكد لهم نبوَّته، وصدقه في تبليغ رسالته. يقول الله سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٢].

<u>الأمر الثاني: اتهامه عليه السلام بالجنون:</u>

وهذا ما يذكِّر القرآنُ الكريم به الأممَ اللاحقة لنوح عليه السلام، فيشير إلى قوم نوح عليه السلام، وزجرهم له، واتهامه بالجنون، لمجرد دعوته إياهم إلى الإيمان والتوحيد، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ [القمر: ٩].

<u>الأمر الثالث: اتهامه عليه السلام بالتكبر والغرور:</u>

وهذه حُجَّة الضعيف، ومنطق الغبيِّ، فهم يزعمون أن لدى الأنبياء مطامع دنيوية في دعواتهم، كما هو شأن السادة والكبراء، في سياسة الأتباع وقيادتهم، وتناسَوا أن الأنبياء أصحابُ

([1]) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾: رقم الحديث: ٤١١٦.

دعوة، وأُمَنَاءُ رسالة، وهم بعيدون كل البعد عن مقاصد الدنيا ومصالحها، وحظوظ النفس وشهواتها. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٤].

الأمر الرابع: اتهامه عليه السلام بالسحر والصرع ومسِّ الجنِّ أيضاً:

وحيث انتشر السحر في زمنهم، فقد زعموا أن نوحاً ساحر. قال الله تعالى على لسان قوم نوح عليه السلام: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

الأمر الخامس: اتهامه عليه السلام بكثرة الجدل والافتراء على الله تعالى:

وهذا ما أثبته القرآن الكريم في وصف ردِّهم عليه. قال الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٣].

الأمر السادس: تهديده عليه السلام وتوعُّده بعقوبة الرجم:

وكان هذا التهديد له ولِمَن آمن معه أيضاً، إن لم ينتهِ عن متابعة دعوته، ويكفّ عن تبليغها. قال الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦].

الأمر السابع: مقابلته عليه السلام بالسخرية والتهكُّم:

وهذا شأن الكبراء في محاولة الاستخفاف والاستهزاء من كل جادٍّ وعملي، وصاحب حجة ومنطق، فهم يلتقُّون عليه بدعوى الهزء والازدراء، ويتهرَّبون من مناقشته، لأنهم لا يملكون حجة يبررون بها تعنُّتهم، سوى التهكُّم والسخرية. قال الله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨].

الأمر الثامن: اتهامه عليه السلام بالكذب:

وهذا أبسطُ ما يوجِّهونه من اتهام، وأقلُّ ما يدَّعونه من افتراء، رغم قناعتهم الداخلية بصدق النبي، وصدق دعوته، وقد تمثَّل اتهامهم له بالكذب في أمرين اثنين؛ التكذيب بأنه رسول من عند الله تعالى، والتكذيب بما أنبأهم به عن ربه تعالى.

ويبدو أن تهمة التكذيب هذه اشتهرت بها أقوام الأمم السابقة لأنبيائهم، حتى عُدَّ قوم نوح أول الأقوام السبعة المكذِّبين لأنبيائهم، إضافة إلى قوم هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، ومدين، وموسى، كما تكرر ذِكْرُ ذلك في مواطن عدَّة من القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ۝٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٥-٢٧].

<u>الأمر التاسع: اتهامه عليه السلام بأن أتباعه من أراذل الناس وفقرائهم:</u>

فهم ينظرون إلى الآخرين من بسطاء الناس وعامتهم نظرة الفوقيَّة، ويعتبرون الفقر رذيلة تُنزل من قدْر الفقير في الرتبة، فلا يستحق الفضل والإجلال، فضلاً عن استحقاقه الاتهام بالكذب والافتراء، وقدحه نعتاً بأقبح الصفات.

قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٢٧ ﴾ [هود: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١ ﴾ [الشعراء: ١١١].

<u>الأمر العاشر: إنكار نبوَّته عليه السلام:</u>

وتجلَّى هذا الإنكار لنبوَّته حين أكَّدوا تساويه معهم في البشرية، وادَّعوا استعلاءه عليهم تفضُّلاً.

قال الله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

المطلب الثالث عشر: وفاته:

توفِّي نوح عليه السلام بعد أن مكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة قبل الطوفان، وعاش بعدها مدة الله أعلم بها، وعلى الرواية السالفة لابن عباس رضي الله عنهما أن مقدار حياته ألفٌ وسبعمائة وثمانون سنة، كما ذكرتُ في المطلب الرابع، والله أعلم.

وقد دُفِن بقرب المسجد الحرام، كما روى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً، أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام بمكة المكرمة، على الراجح من الأقوال، وهو ما يُقوِّيْه ابن كثير ويثبته، خلاف ما يُروى أنه ببلدة بالبقاع، وهي التي تُعرَف اليوم بكرك نوح[1].

<u>المبحث الثاني: مضمون حوار نوح عليه السلام:</u> ويتضمَّن المحاور الثلاثة التالية:

([1]) انظر: البداية والنهاية: ١/١٢٠، وقصص الأنبياء، لابن كثير: ١/٨٤-٨٥، والنبوة والأنبياء: ص: ١٤٤.

المحور الأول: حوار نوح عليه السلام مع قومه:

ويتمثل حوار نوح عليه السلام مع قومه **في المطلبين** التاليين:

المطلب الأول: ملخَّص دعوة نوح عليه السلام ورسالته، وفيه الأمور السبعة التالية:

الأمر الأول: الدعوة إلى توحيد الله تعالى، ونبذ الشرك.

تجلَّى ذلك صريحاً في حواره مع قومه، ولعله أساس الحوار وجوهره، لكنه تميَّز بعرض الفكرة والدعوة إليها، مشوباً بالعطف عليهم، والخوف من عذاب الله تعالى أن يصل إليهم، مشبعاً بالتهذيب الذي يتحلَّى به الدعاة إلى الله تعالى، المحاطون بعناية الله تعالى، الملتزمون بمقتضيات الحكمة في الدعوة؛ فهو ناصح لهم، مشفق عليهم، إلا أن ردَّهم كان سلبياً للغاية؛ فقد اتهموه بالضلال، ووسَمُوه بالسَفَه، وهو رغم افترائهم عليه، لا يزال مُصِرَّاً على حوارهم بقلب رحيم، وصبر جميل، فهو يردُّ اتهامهم له بنفيه عنه، ولم يردّ على الإساءة بمثلها، مؤكداً أنه مرسل من ربه بهذه الدعوة، ومكلَّف بتبليغهم إياها، مأمور بأن ينصح لقومه، فهو يسعى جهده لبرهان قوله، وإظهار موقفه بالحجة والمنطق والحوار الهادف، إلا أن ردَّهم القاسي هو ذاته في الاتهام والتكذيب، والصدِّ والإعراض. وفي تصوير حقيقة هذا الموقف يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤].

الأمر الثاني: النصح:

وفي محاولة ثانية في الحوار يلجأ نوح عليه السلام إلى إسداء النصيحة، وتقديم الرأي والمشورة، في محاولة منه لكسب الجولة في الدعوة، من خلال أسلوب التناصح، فيقدِّم لهم رأياً منطقياً، ويطرح عليهم عرضاً عملياً، لعلهم من خلاله يستجيبون. وخلاصة العرض: أن يُجمِعوا أمرهم على مدارسة القضية، ويخرجوا برأي جماعي موحَّد. إلا أنهم كعادتهم كذَّبوه، وتوعَّدوه بالرجم، واتهموه، وسفَّهوا رأيه، وقلَّلوا من أمره، وما أجْدَى هذا الأسلوب معهم شيئاً. فكانت نهايتهم المعروفة؛ مِن غرقهم، وهلاكهم في الطوفان، ونجاة نوح ومَن تبعه في السفينة، وفي ذلك عبرة لمَن يعتبر. وفي بيان حقيقة هذا الموقف يقول الحقُّ تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ

لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

الأمر الثالث: الجدل المقنع، والحوار الهادف إلى إثبات الحق، بالحجج والبراهين:

مما لا شك فيه أن الجدل حين يكون هادفاً يكون محموداً، أما حين يكون غير هادف فعندها يصبح عقيماً. وفي معالجة أخرى للموقف يجادل نوح عليه السلام قومه متخذاً من الحوار الهادف والإقناع، والإفحام بالرد، والمراجعة الدامغة، المقرونة بالحجج المقنعة، والبراهين الساطعة، مؤكداً على الهدف الأسمى في دعوته إلى التوحيد، مشفقاً عليهم من عذاب الله تعالى للمشركين، ويأتي ردُّهم أنه بشر مثلهم، وأن جُلَّ أتباعه من مستوى الفقراء، وعامة البسطاء ورَعْوَاء البشر، وبالتالي لا فضل يستحق الاتباع، بل قد يتجاوزون الأدب في حقه، فيتهمونه بالكذب. ورغم هذا الاتهام الشنيع فهو يسعى بحواره الهادئ الهادف أن يقدم لهم برهاناً آخر، لعله يجدي خيراً، فهو يعرض عليهم دعوته، مؤكداً أنه يحتسب أجرها ثواباً عند الله تعالى، لا يبتغي منهم جزاءً ولا شكوراً، ويؤكد لهم رفضه ازدراء الآخرين، في النظرة المادية إليهم استعلاءً وغروراً، بل يدعوهم إلى تحكيم العقل والمنطق في احترام الآخرين، ثم يبين لهم حاله، وأنه بشر مثلهم، فهو لا يملك خزائن الأرض، ولا يعلم الغيب، وليس ملكاً منزلاً، ثم هو على كل حال يَكِلُ أمر العباد إلى ربِّ العباد، فمرجعهم إليه، وهو يحاسبهم. وبعد هذا الطرح المطوَّل، والحوار المتتالي، وإقامة الحجة، وبيان الموقف، يفرُّون من مأزق المحاصرة كعادتهم إلى طرح الشكوك، وقذف التهم، فيطالبونه استهزاءً وتهكُّماً بعقوبة الله تعالى الموعودين بها، فيأتي ردُّه المتوازن بأن هذا بيد الله تعالى إن شاء، ولا يعجز اللهَ تعالى شيءٌ، ثم هو يختم حواره ببيان الحقيقة المُرّة، وهي أن نصيحته لهم لم تلْقَ عندهم قبولاً ولا استجابة. وهنا يعرض القرآن الكريم هذا الوجه المطوَّل من الحوار، فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ

مَالاً ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [هود: ٢٥-٣٤].

الأمر الرابع: لون من ألوان الحوار:

وفي وجه آخر من أوجه الحوار، نلحظ طرحاً غريباً من قوم نوح عليه السلام، فهم يرفضون الدعوة، ويُعرضون عن قبولها، متذرِّعين بحُجَّة تعجيزيَّة، فحجَّتُهم أنه بشر مثلهم، وبالتالي لا تستحق دعوته الاستجابة إليها، ولا تتطلب توقيرها، ولا الانصياع إليها، فهم يتطلعون إلى نزول ملائكة بهذه الدعوة كي تحوز احترامهم إياها، وتنال رضاهم وقبولهم لها، فيتبعوها ويقبلوها. وفي بيان حقيقة هذا الأمر يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٤].

الأمر الخامس: أسلوب رائع للحوار:

تمثَّل هذا الأسلوب في طريقة العرض، ووضوح الهدف؛ فنوح عليه السلام رسول من ربه يبلغ دعوته، بأمانة وعفة، بعيداً عن مطامع الدنيا وحطامها الفاني، فهو ينشد من تبليغ دعوته أجراً من ربه، ويأمل استجابتهم لها طواعية والتزاماً، إلا أن ردَّهم غيرُ مستغرَب، فهم كعادتهم يتهرَّبون بحجج واهية، تقوم على الاستهزاء والاستخفاف، فيتَّهمون أتباعه بالخِسَّةِ والسفاهة، وحتى في هذا الاتهام الباطل يسعى نوح عليه السلام أن يفتح لهم قناة الحوار الهادف، ويعطيهم درساً في اعتبار الظاهر في أحوال الآخرين، واحترام الناس على ما يفعلون، أما الحساب والجزاء فأمره إلى الله تعالى، وهو بيده سبحانه، وإليه المرجع، وفي هذا ردٌّ حكيم على قومه الذين يرفضون اندماجهم معهم، ويطالبونه بطردهم. وفي هذا الحوار يحدثنا القرآن الكريم عنه تفصيلاً، يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ *

قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١١٤].

الأمر السادس: الشفقة بهم، والخوف عليهم من عذاب الله تعالى:

تمثل هذا في مضمون خطابه الدعوي؛ فهو يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، إذ لا معبود بحق سواه، وهو يخشى عليهم من عقاب الله تعالى، إن كفروا به ولم يطيعوه. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ ﴾ [هود: ٢٥-٢٦].

الأمر السابع: منهجية نوح عليه السلام في الحوار:

تتمثل هذه المنهجيَّة في سورة نوح عليه السلام كاملة في القرآن الكريم، فقد جاءت هذه السورة كوحدة موضوعية متكاملة لتاريخ هذا النبي الكريم، ومسيرته الدعوية، تضمَّنت بدايتها تكليفَ الله تعالى له بتبليغ رسالته، وإنذار قومه، ودعوتهم إلى عبادة الله وتوحيده، وتقواه وطاعته، طمعاً في مغفرته، وخوفاً من عذابه، ثم استعرضت السورة بيان نوح عليه السلام لربه، فيما قام به تجاه قومه، وشكواه من معصيتهم له، فبيَّن وسائل وطرق دعوتهم المختلفة، ومحاولاته الجادة في هدايتهم؛ من ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، وإنذار وتبشير، وتحذير وتحفيز، وحوار هادئ مصرٍّ على التبليغ، وطامع في الاستجابة، ومؤمِّل في القبول. لقد دعاهم بالليل والنهار، والسر والعلن، وبالتشويق تارة، والتخويف أخرى، ورغم هذا كله لم تُفلح فيهم هذه الوسائل، بل بقوا على عنادهم مستمرين، ولضلالهم وطغيانهم مظهرين، ولتحدِّيه بالردِّ والنيل منه بالتسفيه والرجم والإخراج معلنين. حتى إنهم عبَّروا عن رفضهم القاطع لسماع الدعوة فضلاً عن قبولها، أنهم كانوا يصمُّون آذانهم، فيجعلون أصابعهم فيها، كي لا يصلهم من دعوته أيُّ أثر لها، فيحصل لهم أدنى تأثير، كما كانوا يغطون وجوههم بثيابهم لئلا يَرَوه، مصرِّين على الكفر، كارهين للإيمان، مستكبرين على قبول الحق.

ويستعرض لنا القرآن الكريم هذه المنهجية، فيبين لنا موقف نوح عليه السلام من كل هذا الإعراض في أنه لم ييأس، بل تابع المشوار، بتلوّن وسائل الخطاب، فاستعمل في الحوار أسلوب الإقناع والحجة، وطرح المقارنات فيما لا يختلف عليه العقلاء، وعرض لهم من الأدلة والبراهين المنطقية مما يعاينوه من آثار قدرة الله تعالى، وإنعامه عليهم، مما لا يستطيع أحد إنكاره، فذكَّرهم بخلق السموات السبع في تطابق وإحكام، وأشار إلى نور القمر في الظلام، وضوء الشمس في النهار، ونبَّه إلى خلق الإنسان من التراب، ثم نهايته إلى التراب بعد الموت،

ولفت أنظارهم إلى تمهيد الأرض وبسطها، لتستقر الحياة عليها، وكلها آيات باهرات، تهدي المنصف إن تأمل بها أن يُقِرَّ بالحقيقة، ويقبل الدعوة، ويسلم العنان.

ورغم هذا كله ازدادوا في مكرهم وغيِّهم، ودعوا إلى نصرة أوثانهم التي عبدوها من دون الله تعالى، عندها شكا أمره إلى الله تعالى، بعد طول انتظاره، ونفاذ صبره، فكانت عاقبتهم المعروفة، أن أهلكهم الله غرقاً في الطوفان، ونجَّى نوحاً والذين آمنوا به في السفينة.

وحين استقر على اليابسة مع القِلة ممن آمن معه، وأدرك أن وعد الله حق لا يُخلف، سأل ربه أن يديم نصره لعباده المؤمنين، ويبقي جزاءه وعقابه على العصاة الكافرين، خشية بقائهم فيمتد أثرهم إلى الأجيال القادمة، فدعا ربه أن لا يبقي في الأرض فاجراً شديد الكفر، ثم تذكر أبويه المؤمنَين، فخصَّهما بدعوة صالحة، وألحق بهم في الدعاء كل مؤمن ومؤمنة، وهذا من الوفاء الذي يجب أن لا يُنسى، مِن تذكر أولي الفضل بالدعاء الحسن.

حقاً إن سورة نوح عليه السلام تُعدُّ ملحمة كبرى في قضية الحوار، ومنهجاً حضارياً في الدعوة وأسلوبها، وتاريخاً مليئاً بالعبر والعظات، ودرساً بليغاً بالحِكَم للدعاة والأجيال، بما فيه من أحداث ومواقف ومحطات، تميَّزت به هذه السورة في عرضها لألوان من صور الحوار، ونماذج من وسائله وأشكاله. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۝١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ۝٢٠ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ۝٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ۝٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ۝٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ١-٢٨].

المطلب الثاني: خلاصة موقف قوم نوح عليه السلام منه، وردُّهم عليه:

وقد تمثل هذا الموقف **بالأمور الخمسة** التالية:

الأمر الأول: ادعاؤهم أنه بشر مثلهم؛ قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤].

الأمر الثاني: اتهامه بعدم أفضليته عليهم. قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

الأمر الثالث: تعليلهم وتبريرهم لعدم اتباعه، رغبة في أن تكون الرسل من الملائكة كي يلزم اتباعها، وأن الله قادر على ذلك. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

الأمر الرابع: نفي سماع هذه الدعوة من قبل، فيما مضى من أخبار سابقيهم، مما يستلزم تكذيبه في دعوته. قال تعالى: ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

الأمر الخامس: تهديده بالقتل، والتربص به إلى حين. قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦].

المحور الثاني: حوار نوح عليه السلام مع ولده:

يتحدث القرآن الكريم عن هذا الحوار عارضاً أبوَّة نوح عليه السلام المفعمة بالعاطفة والحنان، المشوبة بالخوف على الولد، والحرص على سلامته وأمنه، وحمايته من عواصف الزمن، وشرور المحن، فيدعوه للانضمام إليه في ركوب السفينة، أملاً في النجاة، حين علم نوح عليه السلام بوحي الله تعالى أن النجاة لِمَن ركب السفينة، والهلاك المحقق لكل الكافرين ممن سيشملهم الغرق خارجها، فيأتي ردُّ الابن العنيد، الرافض لمعاني الاستعطاف، المفعم بمظاهر الغطرسة والكبرياء، المتمثل بعزة النفس وعنفوان الشباب، فيبين لأبيه رغبته بالصعود إلى الجبل، ظناً منه أنه ملاذ للأمان، وتوهماً أنه سبيل للنجاة، ثم يأتي ردُّ الوالد حواراً ورجاءً،

وأملاً في الاستجابة لنصيحته، وتنفيذ مطلبه، وتحكيم العقل على غرور النفس، وتغليب طاعة الوالد، وتلبية رغبته، على حبِّ الذات وأنَفَتِها، وشموخ الشخصية وتعاليها، وقد علم بوحي الله تعالى أن العصمة والنجاة في هذا الموقف لن تكون إلا لِمَن شمله الله تعالى برحمته، ممَّن تبع نبيَّه، ولحق بركبه.

إلا أن صرخة الحنوِّ هذه لا يدركها الابن في كثير من الأحيان، خاصة حين يُقفِل قلبه عن قبول النصيحة، والاستجابة إليها، ويُعمي بصره عن رؤيتها، ويصمُّ أذنَه عن سماعها، فيستحق في نهاية المطاف الهلاكَ والخسران. وهذا ما حدث لكنعان بن نوح عليه السلام. يقول تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

المحور الثالث: حوار نوح عليه السلام مع ربه بشأن ولده:

يتجلَّى هذا الحوار بأبهى صور العبودية والرجاء، وأجمل مظاهر الأدب والحياء، فيطلب نوح عليه السلام من ربه الرحمة بولده، وتلك طبيعة ابن آدم، فإن مما جبلت عليه الطبائع أن حُنُوَّ الوالد على الولد شفقة وعطفاً وغيرة، إنما هو غريزة فطرية في سائر الكائنات، فضلاً عن الإنسان.

وفي الحديث عن يعلى العامري أنه جاء حسن وحسين رضي الله تعالى عنهما يستبقان إلى رسول الله ﷺ، فضمَّهما إليه، وقال: (إن الولد مبخلة مجبنة، وإن آخر وطأة وطئها الرحمن عزَّ وجلَّ بوَجٍّ)[1].

فيسأل نوح عليه السلام ربَّه بحقِّ الرحِم الذي يصله بابنه أن ينجي ولده مما آل إليه من أمر الطوفان، وخطر الهلاك، إلا أن أمْر الله تعالى قد سبق، وقدَر الله سبحانه لا يردُّ، فقد شاءت حكمة الله تعالى أن لا يكون كنعان من ذرية نوح الصالحة، إذ هو عاقٌّ لأبيه، عاصٍ لأمره، لذا

([1]) الموسوعة الحديثية لمسند أحمد: ١٠٤/٢٩، رقم الحديث: ١٧٥٦٢. ومعنى (مجبنة): هو جعل الولد والده يقعد عن الجهاد محبة في البقاء من أجله. ومعنى (مبخلة): من البخل ومظنة له، أي يحمل أبويه على البخل ويدعوهما إليه، فيبخلان بالمال لأجله. ومعنى: (وجٍّ): اسم وادٍ بالطائف. قال البيهقي في الأسماء والصفات: الوطأة المذكورة في هذا الحديث عبارة عن نزول بأسه به. قال أبو الحسن علي بن محمد بن مهدي: معناه عند أهل النظر: أن آخر ما أوقع الله سبحانه وتعالى بالمشركين بالطائف. وكان آخر غزاة غزاها رسول ﷺ، قاتل فيها العدو. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٠٣/١.

استحق سخط ربه، وخروجَه من زمرة الأبناء البارِّين، فهو غيرُ صالح بما عصى، وطالحٌ بما غوى، وعِلْمُ الله تعالى وحكمه منزه عن الظلم والجور، فهو سبحانه أحكم الحاكمين.

وهنا يقرر الحق سبحانه حقيقة ينبغي أن لا تغيب عن الأذهان، وهي أن درجة الصلة وعلامة النسب ورابطة الرحم الحقيقية إنما هي رابطة الولاء والطاعة، فرابطة الدين والعقيدة أغلى وأعزُّ من أيٍّ سواها، فلا قدْر لها في الاعتبار في الدنيا، ومآلها القطيعة والخسران في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

ويحلو الحوار بما يكتنفه من عبارات العبودية والاسترحام، وأدب المناجاة، وأسلوب الخطاب، فيسأل ربه العفو والغفران، من أن يكون قد تجاوز الحد في الطلب، أو تمادى في سؤال ما لا يستحق، معتذراً بأرقِّ عبارات الاسترحام، وأدقِّ كلمات الاستغفار، خوفاً من الخسران، وحذراً من الجهل، وتجاوزِ الحد في المقام. عندها يأتي الإكرام الإلهي لِمَن أحسن السؤال، وأتقن فن الحوار، وربح جولة البحث والطلب، بتأييد الله تعالى وتوفيقه، ولطفِ المولى سبحانه بعبدِه ونصره، ونجاةِ النبي وحفظِه من عواقب الأمور، فينزل إلى الأرض بأمن وسلام، ورعاية ووئام، هو ومَن تبعه من مخلوقات الله تعالى، ويحيق العذاب بمَن خالفه وعصاه، بمَن فيهم من الأهل والولد، ويكون الطوفانُ والغرقُ جزاءَهم ووبالَهم في الدنيا، ويوم القيامة يلقون أشد العذاب.

يقول الحق تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٥-٤٩].

وفي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ قراءتان سبعيَّتان متواترتان؛ فقراءة الجمهور: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾، وقراءة الكسائي: (إنه عملَ غيرَ صالحٍ)، وكلتاهما تدلان على فساد الاعتقاد، وفساد السلوك.

وهذا من الإيجاز في القرآن الكريم الذي تدل فيه القراءات للنص الواحد على عدة معانٍ، تحتاج لولا ذلك إلى عدة نصوص[1].

ولعل أهم ما نفيد به من هذا المحور هو تلمُّس أدب المناجاة في حوار نوح عليه السلام مع ربه، وما أحوجنا إلى مثل هذه الأسوة الطيبة في حسن الأدب مع الله تعالى في السؤال.

لقد سأل نوح عليه السلام ربَّه الخير، وطلب منه المغفرة، ولم يدع بالشر، وكان النهي من الله تعالى بالمقابل نهْيَ موعظة وإرشاد للمستقبل، لا نهْيَ تأنيب على ما مضى، كما كان توجيهاً للرضى التام بقدر الله تعالى، وحُكْمِه الذي لا يُردّ.

<u>المبحث الثالث: نتيجة دعوة نوح في قومه وعاقبتهم، وتتمثل في المحورين التاليين:</u>

المحور الأول: عاقبة قوم نوح؛ وفيه الأمور الخمسة التالية:

الأمر الأول: دعاء نوح عليه السلام على قومه:

لما يئس نوح عليه السلام من استجابة قومه لدعوته، وأوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن به أحد غير هؤلاء المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [هود: ٣٦]، عندها توجَّه لربه، ودعا على قومه، فاستجاب دعاءه، وأجاب نداءه.

قال ابن العربي: دعا نوح عليه السلام على الكافرين أجمعين، ودعا النبي ﷺ على مَن تحزَّب على المؤمنين وألَّب عليهم، في إشارة إلى حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ يقول: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[2]، وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافر معيَّن لم تعلم خاتمته فلا يُدعَى عليه، لأن مآله عندنا مجهول. وربما كان عند الله تعالى معلوم الخاتمة بالسعادة. وإنما خصَّ النبي ﷺ بالدعاء عُتبة وشيبة وأصحابهما؛ لعلمه بمآلهم، وما كُشِف له من الغطاء عن حالهم، والله أعلم[3].

الأمر الثاني: نوح عليه السلام يصنع الفلك:

تمثلت استجابة دعاء نوح عليه السلام في قرار إهلاك قومه، وأمر إغراقهم في الطوفان، عقوبة كفرهم، وجزاء صدِّهم، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنع السفينة ليركب فيها مع مَن آمن به، وينجو من الهلاك المحتم، ولمَّا لم يكن له سابق علم ولا دراية بصنعها، فإن الله

([1]) انظر: نوح عليه السلام في قومه: ص: ١٣١.

([2]) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم الحديث: ٣٨٠٦.

([3]) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣١٢/١٨.

تعالى ذلّل له المهمَّة، بمعونته على تعليم صنعها، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧]. وإنما أمره بعدم مراجعته في شأنهم، لأن عذاب الله تعالى إذا جاء لا يؤخَّر ولا يبدَّل.

ثم باشر نوح عليه السلام صنع السفينة، وجعل قومه يهزؤون به، وهو جادٌّ في صنعها، سيما وهم يعلمون خبرته في النجارة. قال تعالى: ﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٩ ﴾ [هود: ٣٨-٣٩].

ولمَّا أتمَّ تجهيزها أمره الله تعالى أن يركب فيها مع مَن آمن به من قومه، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين من السباع والطير والوحش والبهائم وغيرها، لبقاء نسلها. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ ﴾ [المؤمنون: ٢٧][1].

الأمر الثالث: أمر الطوفان، وانتهاؤه بعد هلاك الكافرين:

أذن الله تعالى للسماء أن تنهمر بالمطر، وللأرض أن تتفجر ينابيع وعيوناً، حتى ارتفع منسوب الماء إلى أعلى جبل في الأرض، فحلَّ الطوفان الذي شمل عامَّة مَن على اليابسة، وعمَّ الغرق الجميع، ولم يسلم منه نجاةً إلا نوح عليه السلام ومَن تبعه ممن ركب السفينة. قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي

([1]) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤٤/٩، وقصص الأنبياء: ٧٤/١، والمراد بالتنُّور عند الجمهور: وجه الأرض، أي: نبعت الأرض من سائر أرجائها، حتى نبعت التنانير التي هي محال النار. انظر: البداية والنهاية: ١١١/١.

بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ [القمر: ٩-١٧].

الأمر الرابع: هبوط السفينة إلى الأرض، بعد نجاة نوح عليه السلام وقومه:

حين استقرت السفينة بجبل (الجودي)، أمر الله تعالى نوحاً ومَن معه أن ينزلوا منها بسلام وأمان، وبركات من العزيز الرحمن. قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٨ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾ [هود: ٤٨-٤٩]، وكان نزولهم منها يوم عاشوراء، حيث صام نوح ذلك اليوم شكراً لله تعالى، وأمر مَن معه من المؤمنين أن يصوموه، وقد توارث بنو إسرائيل صيام ذلك اليوم، وجاء الإسلام فأقرَّ صيامه.

الأمر الخامس: عِدَّةُ مَن كان معه في السفينة، ومدةُ إقامتهم فيها:

اختلف العلماء في عِدَّة مَن ركب معه في السفينة؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا ثمانين معهم نساؤهم، وقيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل غير هذا في روايات متعددة، وأنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يوماً[1].

المحور الثاني: الأحكام والعبر والعظات المستفادة من أسلوب نوح عليه السلام في حواره مع قومه، وفيه الأمور الثلاثة التالية:

الأمر الأول: تحريم الصور:

علمنا أن قوم نوح عليه السلام أولُ مَن عبد الأصنام، وكانت أسماء لأناس صالحين، أو ملائكة مقربين، أرادوا أن يتذكروا أعمالهم الصالحة، فاتخذوا لهم تماثيل زعماً أنهم يتذكرونهم بها، فيتأسَّون بصلاحهم، لكنهم على مر الزمان نسوا هذا، وعبدوا الأوثان.

ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما اشتكى النبي ﷺ، ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة، يقال لها: مارية، وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشة، فذكرتا مِن حسْنِها وتصاوير فيها، فرفع رأسه فقال: أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوَّروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله)[2].

([1]) البداية والنهاية: ١١١/١.

([2]) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب بناء المسجد على القبر، رقم الحديث: ١٢٥٥.

من هنا جاءت الشريعة الإسلامية تحظر التصوير باليد لكل ذي روح، وتحرم اتخاذ التماثيل أيَّاً كان الغرض منها. ففي الحديث عن مسلم قال: كنا مع مسروق في دار يسار بن نمير، فرأى في صفته تماثيل، فقال: سمعت عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (إن أشدَّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون)[1].

وعن عائشة رضي الله عنها (أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فقام النبي ﷺ بالباب فلم يدخل، فقلت: أتوب إلى الله مما أذنبتُ، قال: ما هذه النمرقة؟ قلت: لتجلس عليها وتوسِّدها، قال: إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيُوا ما خلقتم، وإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة)[2].

وعن سعيد بن أبي الحسن قال: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: إني رجل أصوِّر هذه الصور، فأفتني فيها، فقال له: ادْنُ مني، فدنا منه، ثم قال: ادْنُ مني فدنا، حتى وضع يده على رأسه، قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كل مصوِّر في النار، يجعل له بكل صورة صوَّرها نفساً، فتعذبه في جهنم)، وقال: إن كنت لا بدَّ فاعلاً فاصنع الشجر، وما لا نفس له)[3].

وحكمة التشريع في هذا التحريم سدُّ الذرائع، وصيانة العقيدة، حتى لا يقع الناس في الوثنية، كما وقع قوم نوح عليه السلام فيها، ثم انتقل الشر والفساد إلى غيرهم.

الأمر الثاني: أنموذج حوار نوح عليه السلام مع قومه، وربطه بالواقع المعاصر:

بعد هذا الاستعراض الشامل لهذا الأنموذج المميز في الحوار يجدر بنا أن نُسقِطه على الواقع المعاصر، ونستخلص منه أهم الحقائق، فنربط النتائج بالمقدمات، ونفيد من عِبر التاريخ وماضي الأمم، بما ينير لنا الطريق، ويضيء للأجيال القادمة درب المستقبل:

١ـ واقع المجتمعات وضرورة التغير الثقافي:

من المعلوم أن الأمم اليوم بحكم تعدد الحضارات، وما تعيشه من عصر تنازع الثقافات، وتلون الاتجاهات، فقد أصبحت في سباق مع الزمن تحدياً لإثبات الذات، وبالمقابل فقد بات من المهم أيضاً أن يبحث المسلم عن موقعه الطبيعي في هذه الساحة الكونية، ويأخذ مكانه الاستراتيجي ودوره الريادي فيها، فيعايش المسلم هذا الوضع، ويتأقلم معه سعياً لكسب جولة الصراع في هذا الميدان الفسيح؛ من خلال اغتنام فرصة حرية الدعوة، وتوظيفها إيجابياً بما يحقق نجاحها وفلاحها في هداية الآخرين. ومن المستحيل أن يتخلى المسلم عن المبادرة، ويبقى

([1]) صحيح البخاري: كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة، رقم الحديث: ٥٤٩٤.

([2]) صحيح البخاري: كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصورة، رقم الحديث: ٥٥٠٠.

([3]) صحيح مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم الحديث: ٣٩٤٥.

خارج قوس هذه الدائرة منعزلاً سلبياً، بل لا بدَّ من التفاعل الإيجابي الهادف والبنَّاء مع متغيرات هذا الواقع الثقافي والحضاري والاجتماعي الذي يحيط به، محافظاً على الثوابت، ملتزماً بالمنهج الرباني، مؤثراً لا متأثراً، وإلا فهو الخاسر لا محالة.

٢ـ حق الناس في هذه الحياة:

يشترك جميع الناس وكافة البشر بالحق الإنساني في الوجود والحياة، ومصدر هذا الحق إلهي مقدس، بمعنى لا يملك أحد من البشر أن يزايد عليه، أو يراوغ فيه؛ فيحرم الآخرين منه، أو أن يتعامل معهم من خلال نظرة الإقصاء، والامتهان، والإلغاء. وهذا الحق الإنساني أقره رسول الله ﷺ حين أقام دولة الإسلام الفتية، فإن من بنود وثيقة المدينة ما ضَمِنَ فيه حق المسلمين كأمة واحدة من دون الناس، وأن ليهود بني عوف دينهم وللمسلمين دينهم، وعلى كل منهم نفقتهم، وبينهم النصر على مَن حارب الصحيفة، وبينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، والنصر للمظلوم، إلى آخر ما حوته هذه الوثيقة التاريخية العظيمة[1].

٣ـ طبيعة الحوار مع الآخر:

لا يخرج الحوار مع الآخر في المنظور الإسلامي عن كونه أسلوب دعوة، ووسيلة هداية، وتمنِّي الخير للآخر كما يتمتع به المسلم المحاور، لذا فيتميز الإسلام أنه دين دعوة وإصلاح، ورسالة حق ووئام، فالمسلم في حواره مع الآخر يتعامل معه كما يعامل الطبيبُ المريضَ الذي تلزمه العناية اللازمة لعلاجه، فيقدم له الدواء بجرعته المنتظمة، ويتابع تقريره الصحي بعناية مستمرة، ويتحمل منه الأذى، ويصبر عليه، أملاً في شفائه، وهكذا المحاور؛ فهو يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، على هدي الأنبياء والمرسلين، ملتزماً نهجهم في الدعوة.

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

٤ـ طبيعة الاختلاف بين البشر:

شاءت حكمة الله تعالى هذا الاختلاف المتنوِّع بين البشر، في سائر المكونات الثقافية والخَلقية والخُلقية والاجتماعية والنفسية، وذلك ليتم التمازج بينهم، ويحدث التفاعل في المجتمعات الإنسانية، على نحو يقيم لهذا الكون عمارتَه، ويحقق الإنسان فيه خلافتَه، تلك التي جعلها الله تعالى حصراً في الإنسان ـ آدم وذريته ـ، بعد أن تمنَّت الملائكة هذا الشرف، وطلبته طلباً، ولم تحظَ به، لسبق علم الله تعالى بذلك.

([1]) السيرة النبوية، لابن هشام: ١١٥/٢، والرحيق المختوم: ص: ١٩٢.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

ومقتضى ذلك اغتنام طبيعة هذا الاختلاف الفطري ومقوِّماته، لتحقيق هدف الخلافة في سيادة العالم وقيادة البشرية، نحو شاطئ الأمان، وبرِّ السلامة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

٥- العولمة، وموقف الإسلام منها:

مما أصبح شائعاً منظوراً، وبات واقعاً مفروضاً، ظهور العولمة التي يخيِّم شبح الهيمنة والسيطرة فيها على العالم لصالح القطب الأوحد، بما تحمله هذه الظاهرة من سلبيات، وما تجره من ويلات، إلا أن المثل القائل: (ربَّ ضارة نافعة)، فمن الحكمة أن ينظر المسلمون إلى هذه العولمة نظرة إيجابية؛ بمعنى أن يحسنوا التعايش مع واقع مفروض، لا مناص من الاعتراف به، وأن يسعَوا إلى إثبات هويتهم الثقافية والحضارية والدينية على أنهم أصحاب رسالة سماوية شاملة، صالحة لكل زمان ومكان، ودين خاتم ناسخ لما قبله، بما حواه من عالمية الخطاب، وسموِّ التشريعات، وصلاحيتها للتطبيق على كافة الشرائح البشرية بعدل وإنسانية، وفي شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية. إلا أن هذا العرض لا يمكن أن يأخذ سبيله إلى الآخر، وهذا الطرح لا يمكن أن يلقى القبول عند الآخر إلا من خلال الحوار الإنساني الإنساني، القائم على الاحترام المتبادل، وحرية الفكر، والإقرار بالتعددية، مع الاحتفاظ بالخصوصية، وهذا ما دعا إليه القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون: ١-٦]

٦- خصوصية الإنسان:

لا يعني التعايش مع الآخر ضرورة التنازل عن الحقوق، والتخلي عن الثوابت، فلكل البشر خصوصيات شخصية، وحقوق ذاتية، لا يحق لأحد سلخها من أحد، أو منعه من التمتع

بها، فهي داخلة ضمن ما يُعرف بالحقوق الشخصية، والخصوصيات الفردية، ولا يعني حوار الآخر ضرورة التغافل عن المبادئ، والتجاهل للقيم، أو تقديم التنازلات في الأحكام والأساسيات، إرضاء للطرف الآخر، وأملاً في كسب وده، ورغبة في تجاوز قيد الحدود، وكسر طوق الجمود، فقيد الثوابت خط أحمر لا يمكن تعدِّيه، ويستحيل تجاوزه. فالشريعة الإسلامية تميزت بثوابتها السامية مع المرونة في تطبيقها، والأمثلة على ذلك كثيرة.

ففي الحديث الصحيح قوله ﷺ: (إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن)[1].

٧ـ الاستقامة خُلُق المسلم العظيم:

ومما يُعاب على بعض المتصدِّرين للدعوة، والمتحمِّسين لكسب الآخر، طمعاً في هدايته، وأملاً في إيمانه، أنهم يسارعون لهثاً وراءه، راضين بالتنازلات عن الثوابت، وقانعين بالانهزام والتراجع من منطق: (حكم الضرورة)، ومبررين موقفهم بحجج واهية، ففما لا خلاف فيه أن الغاية لا تبرر الوسيلة. وأن الاستقامة على الحق، والتزام الثبات على المنهج أصل أصيل من أصول هذا الدين. قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

الأمر الثالث: نوح عليه السلام في السنَّة النبويَّة المطهَّرة:

وفي ختام المبحث الثالث أستعرض أهمَّ ما جاء في السنَّة النبويَّة المطهَّرة، من أمر نوح عليه السلام، مما له صلة بالبحث:

١ـ وصية نوح عليه السلام لولده:

عن عبد الله بن عمرو قال: (كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج، فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبَّته، وقال: ألا أرى عليك لباس مَن لا يعقل.

ثم قال: إن نبي الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌ عليك الوصية؛ آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وُضِعت في كفة، ووُضِعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر.

([1]) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم بسنده عن النعمان بن بشير ﷺ. صحيح مسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم الحديث: ٢٩٩٦.

قال: قلت، أو قيل يا رسول الله: هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: لا، قال: هو أن يكون لأحدنا حِلَّة يلبسها؟ قال: لا، قال: الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: لا، قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا، قيل: يا رسول الله فما الكِبْرُ؟ قال: سَفَهُ الحق، وغَمْصُ الناس)[1].

٢ـ نوح عليه السلام وتبليغه الدعوة، وشهادة أمة محمد ﷺ له بالبلاغ.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يُدعَى نوح عليه السلام يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيُدعَى قومُه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، أو ما أتانا من أحد، قال: فيقال لنوح: مَن يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، قال: الوسط العدل، قال: فيدعون فيشهدون له بالبلاغ، قال: ثم أشهد عليكم)[2].

٣ـ إجابة دعوة نوح عليه السلام:

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ إذا صلى في بيتي فمرَّ بهذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ [الصافات: ٧٥]، قال: صدقت ربنا، أنت أقرب مَن دَعى، وأقرب مَن دُعي، وأقرب مَن بُغى، فنِعْم المدعو، ونِعْم المعطي، ونِعْم المسؤول، ونِعْم المولى أنت ربنا، ونِعْم النصير). وإنما كانت نِعَم الإجابة تتمثل في نجاته ومَن آمن معه من غضب الله تعالى في الطوفان، وجَعْلِ ذريته أصولَ البشر والأعراق والأجناس، وجَعْلِ عمران الأرض بها دون غيرها، وإبقاءِ الثناء الجميل والذكر الحسن فيمن يأتي بعده من الأمم. بما يتضمن هذا الثناء من معاني التحية والتعظيم، والسلام الدائم في أوساط العالمين؛ من إنس، وملائكة، وجن، غابر الدهر.

٤ـ سلام على نوح في العالمين:

([1]) الموسوعة الحديثية لمسند أحمد: ١٥٣/١١، رقم الحديث: ٦٥٨٣. ومستدرك الحاكم: كتاب الإيمان: رقم الحديث: ١٥٤. و(سيجان) جمع ساج، وهو الطيلسان الأخضر، و(قصمتهن): قطعتهن وكسرتهن، و(سفه الحق): الاستخفاف بالحق، وألا يراه على ما هو عليه من الرجحان والرزانة. و(غمص الناس): احتقارهم وألا يراهم شيئاً. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٧٦/٢، و٣٨٦/٣.

([2]) الموسوعة الحديثية لمسند أحمد: ٣٥٠/١٧، رقم الحديث: ١١٢٨٣.

قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ٧٨-٨١]. أي تركنا عليه ثناءً حسنا، وأبقينا هذه الكلمة باقية، يسلمون عليه تسليماً، ويدعون له إكراماً. فإنه لم يبعث نبي بعده إلا أمر بالاقتداء به.

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى: ١٣]. وروى ابن عبد البر في التمهيد عن سعيد ابن المسيب قال: بلغني أنه من قال حين يمسي: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لم تلدغه عقرب[١].

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (مَن نزل منزلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل)[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: (يا رسول الله ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة، قال: أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك)[٣]. قال الطبري عن هذا السلام: هذه أمَنَة لنوح عليه السلام في العالمين أن يذكره أحد بسوء، وقال ابن عطية: هذا جزاء ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة[٤].

الخاتمة:

أولاً: أهم النتائج:

١- من خلال استعراض النصوص والروايات يتبين لنا أن بين آدم ونوح عليهما السلام حقبة من الزمن تقدر بألف عام، لم يذكر القرآن الكريم فيها من الرسل سوى إدريس عليه السلام، وسكت عن غيره من الرسل ممن أرسِلوا في تلك الفترة.

٢- قصَّ القرآن الكريم علينا من أنباء الرسل الذين بعثهم الله تعالى بعد نوح عليه السلام أخبار الرسلَ الذين انحدروا من سلالة ولده سام دون غيرهم، كما أن إبراهيم يأتي من بعد نوح عليهما السلام ومِن ذرِّيته، لقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ ﴾

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٩٠/١٥.

(٢) موطأ مالك: كتاب الجامع، باب ما يؤمر به من الكلام في السفر.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وغيره، رقم الحديث: ٤٨٨٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٦٨/٢٣، والمحرر الوجيز: ٣٧١/١٢.

[الصافات: ٨٣-٨٤]، وقد جعل الله تعالى النبوة والرسالة في ذريتهما حصراً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحديد: ٢٦].

٣ـ تميَّز سيدنا نوح عليه السلام بخصائص عديدة؛ أهمها: أنه أول نبي من أنبياء الشريعة، وأطول الأنبياء عمراً، وشيخ المرسلين، وأنه أول نذير عن الشرك، وأول داع إلى الله تعالى، وقد سمَّاه الله عبداً شكوراً، وجعله بعد محمد ﷺ في الميثاق[1].

٤ـ رابطة الدين والعقيدة أقوى من أي رابطةٍ سواها، وصِلات الأرحام والأنساب لا قيمة لها في الاعتبار إذا كانت بعيدة عن معاني الإيمان، فأخوَّة الإيمان أقوى الروابط وأعزُّها، ولا يُخفي هذا الاعتبارُ اتحادَ البشر وبني آدم في الوحدة الإنسانية، إذ كلهم لآدم، وآدم من تراب. لكن الكفر يقطع جميع حقوق الصِلات النسبية، فلا يكون للكافر من قرابته المؤمنين حماية، ولا نفقة واجبة، ولا ميراث، ولا نحو ذلك من واجبات.

٥ـ قال الله تعالى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وفي التدبر والتفكر في مضامين قصص الأولين نلاحظ ما يلي:

أ ـ بيان طرائق الدعوة إلى دين الله تعالى وأساليبها، وأخلاق الداعي، أخذاً من دعوات المرسلين، وأخلاقهم وصفاتهم.

ب ـ كشف طبائع الناس وأخلاقهم، وتشابه قلوبهم ونفوسهم.

ج ـ استخراج بعض سُنَن الاجتماع البشري.

٦ـ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]. فقد اشتملت القصة القرآنية على حقائق حدثت فعلاً في تاريخ الأمم، وهي تصديق رسالات الأنبياء السابقين، وما جاء في كتبهم من حق وصدق، وفيها تفصيل العناصر الكلية لما اشتركت فيه هذه الرسالات من الدلالة على وحدة أصولها، إذ جميعها بيان لدين التوحيد دين الإسلام، كما أن فيها عبرة لأولي الألباب حين يتدبرونها فيتعظون بها، ويرتدعون عما سبَّب هلاك الأولين في تكذيبهم لرسلهم، وفيها أيضاً توجيهات إلهية للأنبياء والمؤمنين من بعدهم ليهتدوا بها، متمثلة ببيان ثواب مَن آمن واهتدى، فنال النصرة والتأييد، وعذاب مَن تجبَّر وطغى، فاستحق الهلاك والخذلان.

([1]) في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب: ٧]. انظر: النبوة والأنبياء: ص: ١٤٤.

٧ـ الاعتبار في مشاهدة عقوبات الآخرين، حين تكون العقوبات الربانية قصصاً ثابتة تُروى، وأحداثاً حقيقية يتحدث بها الثقات. ولها آثارٌ مشاهَدَةٌ باقية تدل عليها، ووقائع محسوسة ملموسة تشير إليها، عندها تكون العبرة لأولي الألباب، والموعظة لأولي الأبصار.

٨ـ قصة نوح عليه السلام مع قومه درس إيماني هادف، تتجسد فيه معاني الإيمان والانقياد لأوامر الله تعالى، والتحذير من مخالفته ومعصيته، وما حلَّ بقوم نوح عليه السلام من النقمة والغضب يجب أن لا يغيب عن الذاكرة، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الكافرون، ولعل أحداث (تسونامي) المنصرمة تعيد بنا الذاكرة إلى التاريخ القديم البعيد لقوم نوح عليه السلام، وأن الحدثَين يشتركان في عدد من المقدمات والأسباب والنتائج، فمما لا خلاف فيه أن قدرة الله تعالى مطلقة في فعل واختيار ما يشاء سبحانه، ولا رادَّ لقدره، ومن المسلمات أن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ومن البديهيات أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، فهو يمهل ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالم لم يفلته. وهذا ما يؤكد أهمية طاعة الله تعالى، وخطورة معصيته، وما شاهده العالم وعايشه مؤخراً مما يمكن تسميته بالكوارث الطبيعية، إنما مرده إلى كثرة المعاصي والمخالفات، وأن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، كما أن الرحمة تخصُّ، والبلاء يعمّ. وكل هذا يؤكد أهمية التوبة والرجوع إلى الله تعالى، وتحسين الصلة به سبحانه، والبعد عن المعاصي ومقدماتها، وكثرة الاستغفار، والإنابة إلى الله تعالى.

ثانياً: أهم التوصيات:

١ـ أن يكون المسلم قدوة صالحة يُحتذى به في الحوار وتطبيق أصوله، وخاصة للناشئة؛ كذلك على المربِّين أن يوجِّهوا الأولاد إلى انتهاج الأسلوب القرآني في الحوار. من حيث تكوين شخصية مميزة للمحاور، تمتعه باستقلالية الفكرة، وتحرِّي الصدق، والتزام الجدِّية في الطرح، وعدم التناقض بين القول والفعل والسلوك، كذلك إعطاء الفرصة بشكل أكبر للأولاد لممارسة الحوار، والتشجيع عليه، دون استعلاء أو أنفة، من طرح الرأي، وسماع الرأي الآخر.

٢ـ تشجيع الحوار، من خلال عقد الندوات والمؤتمرات التي تطرح القضايا الشائكة، بقصد الوصول إلى كلمة سواء مع المحاور، تصل إلى التوافق على إقرار الثوابت، والاعتراف بالمبادئ التي تشكل القواسم المشتركة بين المتحاورين، فهناك من الثوابت ما لا يمكن تجاهله، فيتم الاتفاق عليه، وتترك الحرية لما لا يمكن الاتفاق عليه، على أساس من احترام ما يمكن وصفه بالخصوصية للآخرين، أخذاً من القاعدة الحكيمة الشائعة في أدبيات الحوار: (نعمل فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضُنا بعضاً فيما اختلفنا فيه). وفي هذا يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ

كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٣ـ استغلال وسائل الأعلام بكل أطيافها؛ المسموعة منها، والمقروءة، والمرئية، لتوجيهها وتوظيفها بما يخدم رسالة الحوار، لكن على أساس من الموضوعية، والتزام حرية الرأي والرأي الآخر، بعيداً عن العصبية والمذهبية، وإيقاد الفتنة، وإثارة الحساسية التي تقضي على كل جهد خيِّر في عملية الدعوة والإصلاح، أخذاً من عموم قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ ﴾ [غافر: ٨٨].

٤ـ البعد عن كل ما يؤدي إلى تشويه حقيقة الدعوة، أو تقديم تنازلات عن ثوابتها، بمعنى أن الحوار أسلوب حضاري دعَوي مقدس، دعا إليه جميع الأنبياء والرسل، وطبَّقوه عملياً، ومارسوه فعلياً، لكن مسيرة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، والدعاة من بعدهم، ترشدنا إلى مدى ما تمثل به كلٌّ منهم من الاستقامة على المنهج، دون أدنى تنازلات عنه، أو مزايدات عليه، وهذا ما يؤخذ على بعض المتحمسين للدعوة، والبسطاء الضعاف ممَّن يعرض بضاعته يستجدي الآخرين، أملاً في استجابتهم له، مما يوقعه أحياناً في تجاوزات ومخالفات تمسُّ الدعوة في أصولها، وتعارض الدين في ثوابته. وقد صرح القرآن الكريم في مواضع عدة بما يوضح هذه الصورة، ويمنع التجاوز فيها، ويحدد منهجية الدعوة من حيث الإعلان عن المبدأ صراحة، والاعتزاز به، واحترام الآخر في وجهة نظره، وحسن الطرح في محاولة الهداية والإصلاح؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ١ـ٦]، وقال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩].

٥ـ نشر ثقافة الحوار، وتفعيله في المناهج التعليمية على كافة المستويات، وتدريب الناشئة عليه عملياً، من خلال ورشات عمل وأنشطة ثقافية، بحيث يكون الاحتكاك بالآخرين موجَّهاً يخدم الدعوة، وهادفاً لتحقيق التواصل العلمي، والتبادل الثقافي، والحوار الديني، بعيداً

عن كل ما يهدد القيم والفضائل، في تواصل واحتكاك مشبوه بالآخرين، ممَّا يمكن أن يوسم بالغزو الثقافي، التي تشهده بعض الساحات الثقافية والفكرية والاجتماعية.

٦ـ اهتمام الجاليات المسلمة في بلاد غير المسلمين بثقافة الحوار، حيث تنشط هناك حركات التبشير إلى كل فكر وقضية، من خلال المساحات الواسعة لحرية الرأي، والديمقراطية التي تخيِّم على ثقافات الناس، مما يحتم على المسلمين اغتنام هذا الجانب إيجابياً، وذلك بتبنِّي لغة الحوار مع الآخر، ربطاً للواقع مع ما قدمه القرآن الكريم من نماذج رائعة للأنبياء في أدب الحوار مع الآخرين، فيكون السير على هديٍ من مسيرة أولي الهدى ـ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ، لتلمُّس طريق الرشاد.

٧ـ محاربة الغلو والتطرف، والمغالاة والتشدد، ذاك الذي أرجع الأمة القهقرى آلافاً من الأميال، وذلك حين يسلك الداعية في دعوته طريقاً مغلقاً، وسبيلاً وعرة، ويستعمل وسيلة عقيمة، ويتمسك بأساليب جاهلة، ويتناول أدوات بائدة، وينافح عن قضايا شائكة، أو مسائل عالقة، ويتحمس لنصرة رأي على حساب هجوم وعِداء آراء أخرى، مشككاً تارة فيها، ومنكراً ومفسِّقاً ومضللاً لها ولأتباعها تارات أخرى، فأنَّى لطريقته أن تُفلح، وكيف لدعوته أن تثمر.

إن مما لا يختلف عليه عاقلان أن ما سبق أعلاه من صفات إنما هي تجافي روح الدعوة، وتخالف أساس الدين، وما ثبت أن أحداً من الأنبياء أجمعين قد سلكها في دعوته، فالدين دين الله الخالد، دعا إليه جميع المرسلين، بلين واعتدال، ووسطية وأناة، وهذه هي الفطرة، إذ هو دين الفطرة.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

نسأل الله تعالى التوفيق لما يحبُّ ويرضى، وأن يكرمنا بالتأسي بسيرة الأنبياء والمرسلين، وأن يوفقنا للسير على طريقهم، وترسُّم خطاهم، وتتبُّع آثارهم، والاقتداء بمنهجهم، كي نحقق الخير والفلاح، والهدى والرشاد.

وصلَّى الله وبارك على سيدنا محمد نبي الرحمة، وإمام الأنبياء والمرسلين، وقدوة الأئمة والمصلحين، وأسوة الدعاة والمحاورين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومَن سار على دربه، واقتفى أثره، واهتدى بهديه إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

ثبَت المصادر

أولاً: القرآن الكريم:

ثانياً: الكتب المطبوعة:

١. أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٨ م.

٢. إعلام الساجد بأحكام المساجد، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق أبي الوفا مصطفى المراغي، طبع بموافقة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، نشر وزارة الأوقاف، أبو ظبي، ١٣٩٧ هـ.

٣. البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، دار ابن كثير، بيروت: ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٧ م.

٤. تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق عمر ابن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة، بيروت: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٥. تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٦. جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الجيل، بيروت: ١٩٨٧ م.

٧. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٨. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق د/ عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/أولى: ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

٩. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مكتبة الصفاء، أبو ظبي، ط/أولى: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

١٠. سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، بيروت.

١١. سنن أبي داود السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجنان، بيروت: ١٩٨٨ م.

١٢. سنن الترمذي، المكتبة التجارية، مصطفى الباز، دار الفكر، بيروت: ١٩٤٤م.

١٣. السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/ثالثة: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠ م.

١٤. صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان، الأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط/ثانية: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

١٥. صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت: ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٤ م.
١٦. صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م.
١٧. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار الريان، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.
١٨. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية: ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.
١٩. قصص الأنبياء، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٩٦ م.
٢٠. كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.
٢١. الكلّيات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب ابن موسى الكفوي، تحقيق د/ عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.
٢٢. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار بيروت للطباعة والنشر: ١٩٥٦ م.
٢٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٢٤. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.
٢٥. المستدرك على الصحيحين، الحافظ الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م.
٢٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن علي الفيومي، دار القلم، بيروت.
٢٧. معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م.

٢٨. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإخوانه، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٩. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٣٠. الموسوعة القرآنية الميسَّرة، إعداد د/ وهبة الزحيلي، وعدنان سالم، وبسام الزين، ود/ وهبي سليمان، نشر دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية: ١٤٢٣ هـ.
٣١. موطأ مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، موسوعة السنَّة، دار سحنون، تونس.
٣٢. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، نشر مكتبة الغزالي، دمشق، ط/ثانية: ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
٣٣. النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير الجزري، تحقيق محمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة: ١٣٨٥ هـ.
٣٤. نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، تدبُّر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط/أولى: ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

ثالثاً: الأقراص المدمجة: CD:

١. المصحف للنشر المكتبي، إنتاج شركة حرف، الإصدار: ١,٠.
٢. موسوعة الحديث الشريف، إنتاج شركة حرف، الإصدار: ٢,١.